سلطـــان العلمـــــاء

تأليف
فضيلة الشيخ
سلمان بن فهد العودة
المشرف العام على موقع الإسلام اليوم

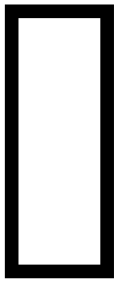

مقدمة

إن الحمـد للـه، نحمـده ونسـتعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسـنا ومـن سـيئات أعمـالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هـادي لـه، وأشـهد أن لا إلا اللـه وحده لا شريك له، وأشـهد أن محمـدًا عبده ورسوله، صلى الله عليـه وعلـى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يـوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُـرْ نَفْـسٌ مَـا قَـدَّمَتْ لِغَـدٍ وَاتَّقُـوا اللـهَ إِنَّ اللـهَ خَبِيـرٌ بِمَـا تَعْمَلُونَ) [الحشر:18].

(يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُـمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِـنْ نَفْـسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَـا وَبَـثَّ مِنْهُمَـا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَـاءً وَاتَّقُـوا اللـهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِـهِ وَالأَرْحَـامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ▪ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـالَكُمْ وَيَغْفِـرْ لَكُـمْ ذُنُـوبَكُمْ وَمَـنْ يُطِـعِ اللـهَ وَرَسُـولَهُ فَقَـدْ فَازَ فَـوْزًا عَظِيمًـا) [الأحـزاب:70، 71].

أمَّا بعد:

فعنوان هذه الرسالة هو: "سلطان العلماء".

وسلطان العلماء هو الإمام: عبد العزيز بن عبد السلام ابن أبي القاسم بن الحسن بن مهذّب، الشيخ العلاّمة وحيد عصره عز الدين أبو محمد السُّلَمي الدمشقي ثم المصري، والمشهور بالعز بن عبد السلام[1].

وليس المقصود من هذه الرسالة أن نخوض في تفصيلات عن حياة العز بن عبد السلام، فنقول مثلاً: إنه ولد في عام (577)هـ، أو توفي في عام (660)هـ، أو عاش في الشام، أو مات في مصر، فإن هذه التفاصيل لا تعنينا في هذه الرسالة كثيرًا، فضلاً عن كونها متوفرة بشكل واضح، في مصادر ترجمة الإمام العز بن عبد السلام، مثل: كتب طبقات الشافعية للسبكي، والإسنوي، وابن قاضي شهبة، وبعض الرسائل الجامعية التي قُدِّمت عن حياة هذا العالم الجليل، والتي كتبها مجموعة من الباحثين، كعبد العظيم فودة، والدكتور عبد الله الوهيبي، وعلي الفقير، وسيد

رضوان الندوي، وغيرهم.

إذن ليس المقصود من هذه الرسالة الحديث عن ترجمة العز بن عبد السلام الملقب "بسلطان العلماء"، وإنما المقصود هو الوقوف عند جوانب مهمة في حياة هذا الرجل.

وسنتناول هذه الجوانب من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: لماذا سلطان العلماء؟

المبحث الثاني: حياته وعصره.

المبحث الثالث: شجاعته وجرأته في الحق.

المبحث الرابع: مواقفه العظيمة.

المبحث الخامس: محاربته للمنكرات.

المبحث السادس: مكانته عند الأمة.

المبحث السابع: بذله للعلم.

المبحث الثامن: معايشته للواقع.

المبحث التاسع: تضامن العلماء معه.

المبحـث العاشــر: مــن يحمــل الراية؟

المبحث الحادي عشـر: فائـدتان عظيمتان من حياة العزّ.

* * *

المبحث الأول

لماذا سلطان العلماء؟

قد يتساءل البعض قائلاً: لماذا نتحدث عن حياة هذا الإمام؟ ولماذا هو سلطان العلماء؟

إن اهتمامنا بدراسة سيرة هذا الإمام -وغيره من العلماء- يرجع السبب فيه إلى أن التاريخ يعيد نفسه؛ فأحداث الأمس هي نفسها أحداث اليوم، والمواقف المنتظرة من رجال اليوم، هي المواقف التي كان يفعلها رجال الأمس، والأمة تمر بها أزمات متكررة في عصورها المتعاقبة تحتاج فيها إلى أن ترجع إلى ماضيها، وتعيد النظر فيه.

بالله سَلْ خَلْفَ بَحْرِ الرُّومِ عَنْ عَرَبٍ

بــالأمس كــانوا هنــا
واليوم قد تاهوا

الله يعلـم ما قلَّبْتُ سيـرتهـم
يومًــا وأخطــأ دَمْــعُ
العَيْـنِ مجراه

استَرْشَـدَ الغَرْبُ بالماضي فَأَرْشَدَهُ
ونحـن كانَ لنـا مـاضٍ
نسينـاه

إن علينــا أن نعــود إلــى ماضــينا، نســتلهم منــه الــدرس والعــبرة ونســتنطق مواقــف أئمــة الهــدى ومشايخ الإسلام.

وأما فيما يتعلـق بهـذا اللقـب الـذي اخترته عنوانًا للرسالة وهو: "سـلطان العلماء" فقد لُقِّـب بـه مـن قِبَـل أحـد تلاميذه وهو الشـيخ المعـروف الإمـام ابن دقيق العيـد[2]، ولهـذا اللقـب سـرّ معروف يتّضح من خلال هذه الرسالة.

* * *

المبحث الثاني

حيـاتــه وعصـــــره

إنّ الشـــــــــيخ الإمـــــــــام العز بن عبد السلام عاش في الشام، ثم في مصر، وعايش دولة بنـي أيـوب الـتي أنشـأها صـلاح الـدين[3]، وكـانت دولـة قويـة، ولكـن فـي آخـر عصـرها تنافس أمراؤهـا علـى الملـك، وأصـبح بعضهم يقاتل بعضًا، حتى لجـأ بعضـهم إلى التحالف مـع الصـليبيين النصـارى من أجل أن يتفرغ لقتال إخوانه، وبنــي عمــه، ثــم كــان فــي آخــر دولتهــم أن حكمتهم امرأة، ولأول مرة فــي تاريــخ الإســلام يملـــك المســـلمين امـــرأة، وكانت تسمى "شـجرة الـدر"[4]، ولمـا مات زوجها أخفت خـبر وفـاته وعَيَّنَـت رجلاً يحكم بالاسم، وكـانت هـي تـدير الأمور، وظلت علـى هـذا الحـال ثلاثـة

أشهر تقريبًا، حتى امتعض النـاس مـن هذا الأمر وغضبوا، ثم تنازلت هي عــن هذا الأمر وعاد الحق إلى نصابه[5] .

المبحث الثالث

شجاعتـه وجرأتـه في الحـق

لعلّ أبرز الجوانب في شخصية هذا الإمــام، هــو مــا يتعلــق بالشــجاعة والجرأة التي كان يتميز بهـا فـي قـول كلمة الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

لقـــــد جـــــدّد الســـــلطان العز بن عبـد السـلام الإنكـار العملـي على السلاطين والأمـراء، وكـان ينكـر عليهم أحياناً علنًا وأمام العامة لاسـيما المنكـر العلنـي، ولا يخـاف فـي اللـه لومة لائم.

إن الشجاعة والجرأة في الحق هـو الهدي والسمت الذي كان موجودًا عند الصحابة - رضي الله عنهم -والتابعين، فمثلاً لما جاء مروان بن الحكـم وغيّـر بعض سنة الرسول - صلى اللـه عليـه وسـلم -، وقـدّم خطبـة العيـد علـى الصلاة، وأخرج المنبر خارج المسجد، قام أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - وأنكـر عليـه؛ بـل إنـه أوقفـه وجـرّه بثوبه، ففي الصحيحين أنّ أبـا سـعيد - رضي اللـه عنـه - قـال: "خرجـت مـع مروان وهو أمير المدينة في أضحى أو فطر، فلما أتينا المصلى إذا منـبر بنـاه كثير بن الصلت، فـإذا مـروان يريـد أن يرتقيه قبل أن يصلي فجبـذت[6] بثـوبه فجبذني، فارتفع فخطب قبـل الصـلاة،

فقلت له: غيّرتم والله، فقال: أبا سعيد، قد ذهب ما تعلم، فقلت: ما أعلم والله خير مما لا أعلم -وقال في رواية مسلم: كلاّ، والذي نفسي بيده لا تأتون بخير مما أعلم-، فقال مروان: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة، فجعلتها قبل الصلاة"[7].

وكذلك قام رجل آخر وأنكر على هذا الأمير، فأقرّه أبو سعيد - رضي الله عنه - على ذلك، فعن طارق بن شهاب قال: "أول من قدّم الخطبة قبل الصلاة مروان، فقام رجل فقال لمروان: خالفت السنة، فقال: يا فلان، ترك ما هنالك، فقال أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه -: أما هذا فقد قضى ما عليه"[8].

فجـدَّد العـز بـن عبـد السـلام هـذا الهدي والسمت الذي كان معروفًا عند الصحابة والتـابعين والأئمـة المهـديين، فكان ينكر على هؤلاء العِلْية من القوم وعلى السلاطين وغيرهم علانية، ولــم يكن يعتقد أن في هذا ضـررًا ولا فتنـة، كــان يــدرك أن فــي الإنكــار العلنــي، وقول كلمة الحق، والصدع بهـا، فوائـد عديدة.

■ فوائد الإنكار العلني:

إن الإنكار العلنـي، والصـدع بكلمـة الحق له فوائـد كـثيرة وعظيمـة، لعـلّ من أهمها:

أولاً: أن يُعــذر العــالم، فيعــرف الناس أنه قال وتكلم وأمر ونهى فلم يُطَع فيعذر، ولا يكون مجالاً لحديث النــاس، أن يقولــوا: داهَــنَ ونــافَقَ وسكت عن الحق، ولا يعرفون أنه قال بِمِلْءِ فيه فلم يُسْتَجَبْ له.

ولقد مررت بعدد من بلاد الإسلام في أقاصي الأرض؛ بل وبغيرها من البلاد الكافرة التي يوجد بها بعض المسلمين، ووجدت أن المسلمين هناك يعتبون كثيرًا على علماء الأمة، فيقولون: إنه حصل كذا، وحصل كذا، وحصل كذا، وما سمعنا كلمة حق.

إذن العالم إذا قالها صريحة واضحة فإن ذلك يكون عذرًا له عند الناس.

ثانيًا: التفاف العامة حول هذا العالم، فالناس إذا رأوا العالم يقول كلمة الحق بقوة وشجاعة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر التفوا حوله، وأحاطوا به، وأخلصوا له الودّ، ووقفوا معه؛ لأنهم سيعرفون حينئذ أنه عالم يريد وجه الله والدار الآخرة، ليس له مطامع ولا مقاصد، وأنه بذل نفسه في سبيل الله - عز وجل -.

فمــن أجــل ذلــك يحيطــون بــه، ويلتفون حـوله، وفـي هـذا حفـظ لهـم وصــيانة لاجتمــاعهم، بخلاف إذا لــم يكونوا يعلمون بما يقول ويفعل؛ فإنهم قد يتهمونه، ويسوء ظنهـم بـه، فيبقـى العالم منفردًا، لا يستجيب له أحــد، ولا ينتفع بعلمه أحد.

ثالثًا: تشجيع الآخرين على الإنكار؛ فإن كثيرًا من الناس يقولون: إذا سكت العالم فغيره من باب أولى، وكذلك إذا سكت طالب العلم فغيره من باب أولى؛ ولذلك كان العز بن عبد السلام - رحمه الله - يصدع بها عالية مدوية، وفي ملأ من الناس؛ ليفتح الطريق للآخرين ويقودهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يخاف في الله لومة لائم.

رابعًا: قبول الحق، فإنّ الحق إذا قيل علنًا، وأُمِر بالمعروف، ونُهي عن المنكر من قِبَل عالم موثوق معروف بصدق وإخلاص، وأنه لا يريد الحياة الدنيا ولا زينتها، ولا يبغي علوًّا في الأرض ولا فسادًا، كان إعلانه بذلك سببًا في قبول الحق الذي قال به، والإذعان له.

خامسًا: رفع مستوى الأمة، وعدم حجب الحقائق عنها، بمعنى أن العالم إذا جهر بالحق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، كأنه يقول للأمة كلها: أنتم الحَكَم بيني وبين خصمي، فأنا أقول الحقَّ وأنتم تسمعون وتحكمون، فالأمة يرتفع مستواها حينئذ، وتصبح أمة مؤثِّرة قوية كل فرد منها له قيمته، ومكانته، وله رأيه، وكلمته، وليسوا مجرد أتباع، يؤمِّنون، ويؤيِّدون، ولا يعرفون هذا من ذاك، ولا يستطيعون أن يشاركوا بالرأي والمشورة، ولأصبحت الأمة قوية لها ثقل، ولها مكان، وهذا لا يكون إلا إذا أشركها العلماء في أمورهم، وأَمْرهم ونَهْيهم، وصدعهم بالحق،

وجعلوا الأمـة تشـارك معهـم فـي هـذا العمل، فلا يحجبون الحقائق عن الأمـة بحجة أن الناس رعـاع، والنـاس همـج، والناس فيهم وفيهم.

إنّ كثيرًا من العلمـاء كـانوا يعلنـون الحقيقـة كاملـة للنـاس، ويجعلـون الناس يتبنون الدفاع عن الحق بمجـرد أن قاله العالم ونطق به.

وكـان العـز بـن عبـد السـلام مـن العلماء الذين يسلكون هذا المنهـج ولا يرون مانعًا شرعيًّا منه .

العز بن عبد السلام - رحمه الله - كان ينطلق من مبدأ صريح، وموقف واضح عَبَّر عنه في كلام له حيث قال: "فإنّا نزعم أنا من جملة حزب الله - عز وجل -، وأنصار دينه وجنده، والجندي إذا لم يخاطر بنفسه فليس بجندي" [9].

إذًا ليس صحيحًا أن يـدّعي الإنسـان أنه جندي من جنود اللـه - عـز وجـل - مجاهد في سبيل الله، آمر بالمعروف، ناهٍ عن المنكـر، ثـم لا يخـاطر بنفسـه في هذه السبيل -ولو مرة واحدة- هذا لا يكون أبـدًا، فالـذي يريـد السـلامة لا يكون جنديًّا ولا يلبـس لبـاس الجنديـة، وإنما يجلـس فـي بيتـه، ويـؤثر سـلامة نفسه وبدنه.

هـــــذه هـــــي طريقـــــة العز بن عبد السلام - رحمه الله -.

* * *

المبحث الرابع

مواقفـه العظيمـة

لقد كان لهذا الإمام الجليل مواقـف فـي غايـة العجـب، وهـذه المواقـف العظيمة لولا أنها مُسَطَّرة في الكتـب لقلنـا: إنهـا خيـال مـن الخيـال، لكنهـا مكتوبة، والذين كتبوها هم من العلماء الـذين عاصـروه وعاشـروه وعاشـوا معه.

ومن هذه المواقف العجيبة:

■ **مـوقفه مـع الملـك الصـالح إسماعيل:**

عندما كان العز بن عبد السلام في دمشق كان الحاكم رجلاً يقال له: "الملك الصالح إسماعيل" من بني أيوب، فولّى العز بن عبد السلام خطابة الجامع الأموي، وبعد فترة قام الملك الصالح إسماعيل هذا بالتحالف مع النصارى الصليبيين، أعداء الله ورسله، فحالفهم وسلّم لهم بعض الحصون، كقلعة الشَّقِيف[10]، وصَفَد[11]، وبعض الحصون، وبعض المدن وذلك من أجل أن يستعين بهم على قتال الملك الصالح أيوب في مصر.

فلما رأى العز بن عبد السلام هذا الموقف الخائن الموالي لأعداء الله ورسله - عليهم السلام- ، لم يصبر فصعد على المنبر، وتكلّم وأنكر على الصالح إسماعيل تحالفه مع الصليبيين، وقالها له صريحة، وقطع الدعاء له في الخطبة، بعدما كان اعتاد أن يدعو له[12]، وختم الخطبة بقوله: "اللهم أبرم لهذه الأمة أمرًا رشدًا تُعِزُّ فيه وليَّك، وتُذِلُّ فيه عدوَّك، ويُؤْمَر فيه بالمعروف، ويُنْهَى فيه عن المنكر"[13]. ثم نزل.

وعــرف الأميــر الملــك الصــالح إسـماعيل أنـه يريـده، فغضـب عليـه غضــبًا شــديدًا، وأمــر بإبعــاده عــن الخطابة، وسجنه، وبعدما حصل الهـرج والمرج، واضطرب أمر الناس، أخرجه من السـجن ومنعـه مـن الخطبـة بعـد ذلك[14].

وخـرج العـز بـن عبـد السـلام مـن دمشق مغضبًا إلى جهة بيت المقـدس، وصــادف أن خــرج الملــك الصــالح إسماعيل إلى تلك الجهة أيضًـا والتقـى أمراء النصارى قريبًا من بيت المقدس، فأرسـل رجلاً مـن بطـانته وقـال لـه: اذهـب إلـى العـز بـن عبـد السـلام، ولاطِفْهُ ولاينِْهُ بالكلام الحسن، واطلب منه أن يأتي إليّ، ويعتذر منـي، ويعـود إلى ما كان عليه، فـذهب الرجـل إلـى العز بن عبد السـلام وقـال لـه: ليـس بينــك وبيــن أن تعــود إلــى منصــبك وأعمالك وزيادة على ما كنت عليه، إلا أن تـأتي وتُقَبِّـل يـد السـلطان لا غيـر، فضحـك العز بن عبـد السـلام ضـحكة السـاخر وقال: "يا مسكين، والله ما

أرضـــى أن يُقَبِّـــلَ الملـــك الصـــالح إسماعيل يدي فضلاً عن أن أُقَبِّلَ يده، يا قومُ أنا في واد، وأنتم فـي واد آخـر، الحمد لله الـذي عافـاني ممـا ابتلاكـم به".

قال: إذًا نسجنك، فقال: "افعلوا مـا بـدا لكـم". فأخـذوه وسـجنوه فـي خيمـة، فكان يقرأ فيها القرآن ويَتَعَبَّد ويذكر الله تعالى.

وفـي إحـدى المـرات كـان الملـك الصالح إسماعيل قد عقد اجتماء اً مـع بعض زعماء النصارى الصـليبيين، كـان اجتمـــــــاعهم قريبـــــاً مـــــن العز بن عبد السـلام بحيـث يسـمعون قراءته للقـرآن، فقـال: هـل تسـمعون هـذا الـذي يقـرأ؟ قـالوا: نعـم. فقـال متفــاخرًا: هــذا هــو أكــبر قساوســة المسلمين سَجَنَّاه؛ لأنـه اعـترض علينـا في محالفتنا لكم، وتسليمنا لكم بعـض الحصون والقلاع، واتفاقنا معكـم علـى قتال المصريين.

فقال له ملوك النصـارى: واللـه لـو كان هذا القسيس عندنا لغسلنا رجليـه وشربنا مرقته[15]!

لـو كـان عنـدنا رجـل بهـذا الإخلاص للأمة وبهـذه القـوة، وبهـذه الشـجاعة لكُنَّا نغسل رجليه، ولشَرِبْنا الماء الذي غسـلنا بـه رجليـه، فأصـيب الملـك إسماعيل بالخيبة والـذلِّ، وكـانت هـذه بدايـة هزيمتـه وفشـله، وجـاءت جنـود المصريين، وانتصرت عليه وعلـى مـن كـانوا متحـالفين معـه مـن الصـليبيين، وأفرجـــت عـــن الإمـــام العز بن عبد السلام.

هـــذا موقـــف صـــرّح فيـــه العز بـن عبـد السـلام - رحمـه اللـه - بالأمر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر علــى رؤوس المنــابر، ورأى أن هــذا الذي يسعه، مع أنه كان يسـتطيع غيـر ذلك، ولكنه رأى أن هـذا هـو الأسـلوب المناسـب، خاصـة أن الصـليبيين فـي تلـك الوقعـة دخلـوا شـوارع دمشـق ومـــدنها، وتجوَّلـــوا فـــي أســـواقها ودكاكينهـا، وكـانوا يشـترون الأسـلحة مــن المســلمين؛ ولــذلك وُجِّــه إليــه الاستفتاء: هـل يجـوز أن نـبيع السـلاح للنصارى؟

فـأفتى - رحمـه اللـه - بـأن بيـع السلاح إليهم لا يجوز؛ لأن مـن يـبيعهم السلاح يعلم أنهم سوف يصوِّبون هـذه الأسلحة إلى صدور المسلمين.

■ موقفه مع الصالح أيوب:

خرج العز بن عبد السلام بعـد ذلـك إلى مصر، واستقبله نجم الدين أيـوب، وأحسن استقباله، وجعله فـي مناصـب ومسؤوليات كبيرة في الدولة.

وكـــــان المتوقـــــع أن يقـــــول العز بـن عبـد السـلام: هـذه مناصـب توليتهـا، ومـن المصـلحة أن أحـافظ عليها حفاظًا على مصـالح المسـلمين، وألاَّ أعكِّر ما بينـي وبيـن هـذا الحـاكم، خاصة أن الملك الصالح أيوب -مـع أنـه رجل عفيف وشريف- إلا أنه كان رجلاً جبارًا مستبدًّا شديد الهيبة، حتى إنه ما كان أحدٌ يسـتطيع أن يتكلـم بحضـرته أبدًا، ولا يشفع لأحد، ولا يتكلم إلا جوابًا لسـؤال، حـتى إن بعـض الأمـراء فـي مجلسه يقولون: والله إننا دائمًا نقـول ونحـن فـي مجلـس الملـك الصـالح أيوب: لن نخرج من المجلـس إلا إلـى السجن؛ فهو رجل مهيب، وإذا سجـن إنسـانًا نسيـه، ولا يسـتطيع أحـد أن يكلِّمـه فيـه، أو يـذكره بـه، وكـان لـه

عظمة وأبهة، وخوف وذعر في نفــوس الناس، ســواءً الخاصــة منهــم والعامــة، فماذا كان موقف العز بن عبد الســلام معه؟

في يوم العيد خرج موكب السلطان يجوس في شوارع القاهرة، والشرطة مصطفّون على جوانب الطريق والسيوف مُصْلتة، والأمراء يقبّلون الأرض بين يدي السلطان هيبة وأبهة -وهذه كانت عادة سيئة موجودة عند الأمراء في ذلك الوقت-، وهنا وقف العز بن عبد السلام وقال: يا أيوب؛ هكذا باسمه مجردًا بلا ألقاب، فالتفت الحاكم ليرى: من الذي يخاطبه باسمه الصريح، بلا مقدمات، ولا ألقاب؟ ثم قال له العزّ: ما حُجَّتُك عند الله - عز وجل - غدًا إن قال لك: ألم أُبَوِّئْكَ ملك مصر، فأبحت الخمور؟ فقال: أويحدث هذا في مصر؟ قال: نعم، في مكان

كـذا، وكـذا، حانـة يبـاع فيهـا الخمـر وغيرها مـن المنكـرات، وأنـت تتقلّـب في نعمة هذه المملكة؟

فقال: يا سيدي، أنا ما فعلت هذا، إنمـا هو من عهـد أبـي. فَهَـزَّ العـز بـن عبـد السـلام رأسـه وقـال: إذن أنـت مـن الـذين يقولـون: **(إِنَّـا وَجَـدْنَا آبَاءَنَـا عَلَى أُمَّةٍ)** [الزخـرف:22]، فقـال: لا، أعوذ بالله، وأصدر أمرًا بإبطالها فـورًا، ومنع بيع الخمور في مصر[16].

رجع العز بن عبد السلام - رحمه الله - إلى مجلسه يعلِّم الطلاب، ويدرِّسهم، وكان يعلمهم مواقف البطولة، والشجاعة كما يعلمهم الحلال والحرام، ويعلمهم الغَيْرة على الدين مثل ما يعلمهم الأحكام؛ إذ ما قيمة أن يوجد طالب يحفظ القرآن والصحيحين والسنن، وكتب الفقه والحديث ومع ذلك هو ميت الغيرة على الإسلام، لا يغضب لله ورسوله - صلى الله عليه وسلم -، ولا يَتَمَعَّر وجْهُهُ إذا رأى المنكر، ويَتَطَلَّعُ لمنازل الصِّديقين والشهداء؟ ما قيمة هذا العلم؟

وعندما رجع العز بن عبد السلام إلى مجلس درسه جاءه أحد تلاميذه يقال له: "الباجي" يسأل: كيف الحال؟ قال: بخير والحمد لله. قال: كيف فعلت مع السلطان؟ قال: يا ولدي، رأيت السلطان وهو في أبهة وعظمة، فخشيت أن تكبر عليه نفسه فتؤذيه، فأردت أن أهينها[17].

إذن العز بن عبد السلام أعلن هذا الأمر على الناس؛ لأنه يريد أن يربي السلطان، ويقصد إنكار مُنْكَرَيْن في وقت واحد:

المنكر الأول: الحانة التي يباع فيها الخمر.

والمنكـر الثـاني: هـو هـذا الغـرور، وهذه الأبهة، والطغيان الذي بـدأ يكـبر فـي نفـس الحـاكم، فـأراد أن يقتلعـه، ويزيله من نفسه لـذا قـال العـز: "لئلاّ تكبر عليـه نفسـه فتـؤذيه". فقـال لـه تلميذه الباجي: يا سـيدي، أمـا خِفْتَـه؟ قـال: "لا واللـه يـا بنـي، استحضـرت عظمة الله - عز وجل - وهيبته فرأيت السلطان أمامي كالقط!"[18].

لكن ما رأيكم في طالب علم أصبح يخـاف حـتى مـن القـط؟ هـل يـأمر أو ينهى؟ كلا بالطبع.

لعـــل مـــن أســـباب قيـــام العـز بـن عبـد السـلام - رحمـه اللـه - باتخاذ هـذه المواقـف العلنيّـة أن يجـرَّ الأمة كلها إلى مواقف شجاعة قوية.

■ موقفه مع أمراء المماليك:

وهناك موقف آخـر يعدُّ مـن أعجـب مــواقفه - رحمــه اللــه -، فقــد كــان المماليك هم الذين يحكمون مصر في عصر العز بن عبـد السـلام فالحكومـة الحقيقية كانت في أيـديهم، فقـد كـان نائب السلطنة مملوكيًّا، وكذلك أمــراء الجيـش والمسـؤولون كلهـم مماليـك في الأصل وفيهم من لم يثبـت تحـرره من الرق.

وكـان العـز بـن عبـد السـلام كـبير القضاة بمصر، فكان كلما جاءته رقعـة فيها بيع أو شراء أو نكاح أو شـيء مـن هذا للمماليك الذين لم يحرروا أبطلهـا وقال: هذا عبد مملوك، حـتى لـو كـان أميـرًا وكـبيرًا عنـدهم أو قائـدًا فـي الجيش يَـرُدُّه، إذ لابـد أن يُبَـاع ويحـرَّرَ، وبعـد ذلـك يُصَـحِّحُ بيعهـم وشـراءهم وتصرفاتهم كلها، أما الآن فهم عبيد.

فغضب المماليـك مـن هـذا الإمـام، وجـاؤوا إليـه وقـالوا: مـاذا تصـنع بنـا؟ قـال: رددنـا بيعكـم، فغضـبوا أشـد الغضب ورفعوا أمـره إلـى السـلطان، فقال: هذا أمر لا يعنيه.

فلمّا سمع العز بن عبد السلام هذه الكلمة؟ قام وعزل نفسه من القضاء.

لقد كان من أهم جوانب قوة العز بن عبد السلام أنه كان أكبر من المناصب، وأكبر من الوظائف، وأكبر من الأسماء؛ ولذلك ما كان يتطلع إليها أو يستمد قوته منها، إنما يستمد قوته من إيمانه بالله - عز وجل -، ومن وقفته إلى جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدع بكلمة الحق، ثم من الأمة التي أعطته ثقتها واتباعها في الحق يصدع به.

ولذا أصبح العز بن عبد السلام فـي حياتهم وقلوبهم هو تاج الزمان ودُرَّته، وأصبح هو أعظم عـالم وداعيـة وإمـام في العالم الإسلامي في وقته؛ فلـذلك عزل نفسه عن القضـاء؛ إذ كـل أمـور المسـلمين تـدخل تحـت تصـرّف القاضي، وهـو لا يحكـم فيهـا إلا بحكـم الله ورسوله - صلى الله عليـه وسـلم -.

ثم قـام العـزّ بتصـرف آخـر مشـابه، وهو أنه جمع متاعه وأثاث بيته واشـترى حمـارين، ووضـع متـاعه علـى حمـار، وأركـب زوجتـه وطفلـه علـى الحمـار الآخـر، ومشـى بهـذا الموكب البسـيط المتواضـع يريـد أن يخـرج مـن مصـر ويرجع إلى بلده الشام.

لكـــن الأمـــة كلهـــا خرجـــت وراء العــز بــن عبــد الســلام، حــتى ذكــر المؤرِّخــون أنــه خــرج وراءه العلمــاء والصالحون والعبـاد، والرجـال والنسـاء والأطفــال، وحــتى الــذين لا يــؤبه لهــم -هكذا تقــول الروايــة- مثــل: النجــارين، والصباغين، والكناسـين...، وخـرج كـل أصــحاب الحــرف والمهــن -الشــريفة والوضيعة-، الجميـع خرجـوا وراء العـز بــن عبــد الســلام فــي مــوكب مهيــب رهيب.

ثم ذهب بعض الناس إلى السـلطان وقالوا له: من بقي لك تحكمه إذا خــرج العز بن عبـد السـلام، وخرجـت الأمـة كلها وراءه؟ ما بقي لك أحـد، مـتى راح هؤلاء ذهب ملكك.

فأسرع الملك الصـالح أيـوب للعـزّ، وركض يدرك هذا الموكب ويسترضـيه ويقول له: ارجع ولك ما تريد، قـال: لا أرجـع أبـدًا إلا إذا وافقتنـي علـى مـا طلبت من بيع هـؤلاء المماليـك، قـال: لك ما تريد، افعل ما تشاء.

رجع العز بن عبد السلام وبدأ المماليك يحاولون معه ليغيّر رأيه؛ إذ كيف يباعون بالمزاد العلني، فأرسل إليه نائب السلطنة -وكان من المماليك- بالملاطفة فلم يفد معه هذا الأسلوب، فاقترح بعضهم قتل العز بن عبد السلام، فذهب نائب السلطنة ومعه مجموعة من الأمراء، ثم طرق باب العز بن عبد السلام، وكانت سيوفهم مصلتةً يريدون أن يقتلوه فخرج ولد العز بن عبد السلام -واسمه عبد اللطيف-، فرأى موقفًا مهيبًا مخيفًا، فرجع إلى والده وقال: يا والدي انجُ بنفسك.. الموت، الموت، قال: ما الخبر؟ قال: الخبر كيت، وكيت.

فقال العز بن عبد السلام لولده: يا ولدي، والله إن أباك لأحقر وأقل من أن يقتل في سبيل الله - عز وجل -.

ثم خرج مسرعًا إلى نائب السلطنة، فلمّا رآه نائب السلطنة يبست أطرافه، وتجمّد وأصابته حالة من الذعر والرعب، وأصبح يضطرب وسقط السيف من يده، واصفرَّ وجهه، وسكت قليلاً ثم بكى وقال: يا سيدي، خبِّر ماذا تعمل؟ قال العز: أنادي عليكم وأبيعكم. قال: تقبض الثمن؟ قال: نعم. قال: أين تضعه؟ قال: في مصالح المسلمين العامة، فطلب منه الدعاء وبكى بين يديه ثم انصرف.

وفعلاً فَعَلَها العز بن عبد السلام - رحمه الله - قام وجمع هؤلاء، وأعلن عنهم، وبدأ يبيعهم، وكان لا يبيع الواحد منهم إلا بعدما يوصله إلى أعلى الأسعار، فلا يبيعه تَحِلَّةَ القسم، وإنما يريد أن يزيل ما في النفوس من كبرياء، فكان ينادي على الواحد بالمزاد العلني، وقد حكم مجموعة من العلماء والمؤرخين بأن هذه الواقعة لم يحدث مثيل لها في تاريخ البشرية كلها[19].

إن جميـع الأمـم علـى مـدى تاريـخ البشرية جمعاء إذا أتوا يفاخروننا، فإننا نفاخرهم بأئمة أفذاذ مـن أمثـال العـز ابـن عبـد السـلام، هـاتوا لنـا شخصـية فكرية في الأمم كلهـا تقـف مثـل هـذا الموقف؟

ولعل تاريخ الإســلام كلـه لا يعـرف فيه مثل هذا الموقف الذي حصل للعز بن عبد السـلام - رحمـه اللـه - رحمـة واسعة.

وقد سجَّل هذا الموقف - بقلمه البارع وأدبه الرفيع-، الأديب مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - في كتابه "وحي القلم" تحت عنوان "أمراء للبيع"[20]، وألَّف أحد المعاصرين كتابًا سماه: "العز بن عبد السلام بائع الملوك".

إذن العز بن عبد السلام كان شجاعًا في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهر بكلمة الحق، وكان يرى أن يقول ذلك علانية، وصراحة، ولا يداهن، ولا يخاف في الله لومة لائم.

* * *

المبحث الخامس

محاربتـه للمنكـرات

لم يكن العز بن عبد السلام يكتفي بإنكار المنكر بلسـانه فحسـب؛ بـل إن الأمـر قـد تعـدّى إلـى أنـه كـان يتـولى بنفسه تغيير المنكرات وقد سبق ذكــر شيء من ذلك.

■ مــوقفه مــع الــوزير فخــر الدين:

ومن أبرز المواقف التي تـذكر فـي هذا الجانب: أن بعض تلاميذه أتوه في يوم من الأيام فقالوا له: إنه في مكان كذا، قام وزير كبير في دولة المماليـك ويـدعى فخـر الـدين ببنـاء طبلخانـة -وهي: مكان مخصص للغناء والرقـص والموسـيقى والفسـاد- وكـان هـذا المكان بقرب أحد المسـاجد، وعنـدما تأكد العز بـن عبـد السـلام مـن صـحّة هذا الخبر، جمع أولاده وبعـض تلاميـذه وذهـب إلـى المكـان الـذي يسـمونه بالطبلخانة، وقام وأخـذ الفـأس، وبـدأ في هـدم هـذا المكـان هـو ومـن معـه حتى سَوّوه بالأرض.

فهل اكتفى بهذا؟ لا؛ بل أصدر قرارًا بأن هذا الوزير ساقط العدالة، فلا تقبل شهادته، ولا يقبل منه أي خبر من الأخبار، وأعلن ذلك للناس، فسرعان ما تناقلت الأمة هذا الخبر عن العز بن عبد السلام.

وظـن فخـر الـدين وغيـره أن هـذا الحكم بإسقاط عدالته لن يتأثر به فخر الـدين إلا فـي مصـر فقـط، ولكنهـم تعجّبوا أشد العجب حينما حـدث خلاف ذلك، فقـد أرسـل ملـك مصـر "الملـك الصـالح" إلـى الخليفـة العباسـي المستعصـم ببغـداد رسـالة شـفهية بواسطة أحـد الأشـخاص وعنـدما أبلـغ هـذا الرجـل الرسـالة إلـى الخليفـة المستعصـم قـال لـه الخليفـة: هـل سمعت هذه الرسالة من ملك مصر مباشرة؟ قال: لا، ولكن أبلغنيها الوزير فخـر الـدين عـن الملـك، فقـال لـه الخليفـة: إن هـذا الـوزير المـذكور قـد أسقط العز بن عبد السلام عدالته، ولا أقبل خبره، ارجع بهذه الرسـالة، فلـن

أقبل هـذا الخـبر حـتى تـأتيني بـه مـن حاكم مصر مباشـرة، فرجـع الرسـول إلى ملك مصر حتى شـافهه بالرسـالة ثم عاد إلى بغداد وأدّاهـا إلـى الخليفـة المستعصم[21].

وعندما وصل خبر ردّ الخليفة لرواية هـذا الـوزير وخـبره، عـرف النـاس أن الأمة كلها مع العز بن عبد السلام.

ولنـــا علـــى هـــذه القصّـــة ثلاث ملاحظات:

الملاحظة الأولى: نلاحظ من هذه القصة: كيف أن الأمة كانت تواصل العلماء، وتخبرهم بما يجري وما يقع؛ فالعالم ليس كالشمس يشرق على هذه الدنيا كلها، ولذا يحتاج من تلاميذه وممن حوله أن يقولوا له: حصل كذا وحصل كذا، بحيث إن الأمة كلها تمد جسورها مع العالم وهذا أمر مهم وضروري للغاية.

الملاحظـــــة الثانيـــــة: أنّ العز بن عبد السلام كان يتولى بنفسه أحيانًا مباشرة تغيير المنكر باليـد، وقـد قال الرسول - صلى الله عليـه وسـلم -: "**من رأى منكم منكرًا فليغيــره بيده، فإن لم يســتطع فبلســانه، فإن لـم يسـتطع فبقلبـه، وذلـك أضــعف الإيمــان**"[22] والعــز كــان يستطيع أن يغير بيده فقد كان منصــبه ومكانته تؤهله لذلك .

وتغييــره - رحمــه اللــه - باليـد يعـد مَوْقفًا وسطًا بين صورتين تقعـان فـي كل زمان ومكان:

الأولى: صورة بعض المتعجلين الذين يقومون بتغيير المنكرات بأيديهم لكنهم ليس لديهم قوة، ولا مكانة، بحيث إن تغييرهم للمنكر قد يعود بنتائج سلبية، وهذا ما نلاحظه في هذا العصر في كثير من البلدان، يكون تغيير المنكر باليد -بإتلافه، أو إحراقه، أو هدمه، أو منع وقوعه- سببًا في مضاعفة المنكر.

الثانيــة: وهــي صــورة بعــض طلبــة العلــم، والمحســوبين علــى الــدعوة والخيــر، ممــن إذا رأى المنكــر طأطــأ رأسه وقال: لا حول ولا قــوة إلا بــالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، وربمــا لا يمــرّ علــى هــذا المكــان الــذي شــاهد فيــه المنكــر ثانيــة، ولا يبــذل أيّ محاولــة إيجابيــة لتغييــر هــذا المنكــر. وبــالطبع فــإن الهــروب مــن المنكــر لا يعنــي أن المنكر زال، وقول: "إنا للــه وإنــا إليــه راجعــون" هــو قــول طيــب بلا شـــك، وذِكْرُ لله – عــز وجل -، ولكن يجب أن يُشــفع ذلــك ويؤيَّــد بموقــف إيجــابي فعّال، يعمل على إزالة المنكر.

فكان موقف العز بـن عبـد السـلام موقفًـا وسـطًا بيـن هـاتين الصـورتين، فهو رجل متمكن له قـوة وقـدرة ولـذا استطاع بها أن يغيّر المنكر بيده.

الملاحظة الثالثة: إن الـذي جعـل العز بن عبد السلام - رحمه الله - يقف هذا الموقـف هـو أن الأمـة كلهـا وراءه؛ ولذلك لما أصـدر قـرار إسـقاط عدالـة هذا الرجل، ما عـاد أحـد يقبـل منـه أي قول.

فإذا كـانت الأمـة فعلاً ملتفـة حـول علمائهــا وقادتهــا الشــرعيين فإنهــا تكتسب بهم قوة، وتكسبهم قوة:

- أمّـا العلمـاء فـإن الواحـد منهـم يستطيع بتأييد الأمة له والتفافها حـوله أن يـأمر وينهـى ويعلـن الحـق وينكـر المنكـر وإذا غضـب غضـبت لـه ألـوف وألوف.

- من جهة أخرى فالأمة تتقوى بهم؛ لأن هؤلاء العلماء ما اكتسبوا مكـانتهم إلا لأنهـــم كـــانوا هـــم المـــدافعون الحقيقيّــون عــن مصــالح الأمــة كمــا سيظهر ذلك في المبحث التالي.

* * *

المبحث السادس

مكانتــه عنــد الأمة

لعلَّ من أبرز الجـوانب الـتي نحتـاج إلــى أن نقــف عنــدها فــي حيــاة العز بن عبد السلام هي: مكانة العالم لـدى الأمــة عامهــا وخاصــها جمــاهير الأمة، وسلاطينها وحكّامها.

لقد كان العز بن عبد السلام - رحمه الله - حلقة وصل بين العامة والخاصة، بين الحاكم والمحكوم؛ لأن الحاكم يحتاج إليه، لتأييد مواقفه وكسب الناس؛ ولذلك عندما يتولى الحاكم المملوكي أو غيره مقاليد الحكم، كان أول من يبايعه هو العز بن عبد السلام، ثم بعد ذلك تبايعه الوزراء، ثم تبايعه الناس[23]، فكان الحاكم يدري أنه يحكم أمة مسلمة تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، وأنه لا يستطيع أن يستقر ويضمن هذه الأمة، إلا إذا حكمها بكتاب الله وسنة نبيها - صلى الله عليه وسلم -، وأرضى الواسطة بينه وبين هذه الأمة وهم العلماء.

فكان العالم يحتاجه الحاكم وفي نفس الوقت تحتاجه الرعية؛ لأن الرعية لها حاجات ومطالب وآراء واجتهادات، وكانوا لا يوصلونها بأنفسهم؛ لذلك يحتاجون إلى العالم؛ حتى يوصل هذه الأمور إلى الحاكم، فهو حلقة وصل بين الأمة وبين حكامها ومسؤوليها.

إن العالم فـي هـذا الـوقت -خاصـة العز بن عبد السلام- كان فـي موقـف عظيـم، فمـن جهـة كـان مـدافعًا عـن مصالح الأمة سواءً في أمورها الخاصة أو العامة، ولعل من أبرز الصـور الـتي تتجلى فيها مدافعته عن مصـالح الأمـة دفــاعه عــن مصــالحها الاقتصــادية، ومعلوم أن الاقتصاد مـن الأمـور الـتي يشترك الناس كلهم في الغضب لها أو الرضــا بهــا، فــإذا مَسَّــت الجــوانب الاقتصادية حياة النـاس سـخطوا، وإذا أرضـــوا بالمـــال رضـــوا: طيّبُهـــم وفاجرُهم.

ولذلك كان العز وغيره من العلمـاء يحرصون على حمايـة مصـالح النـاس عامة والاقتصادية خاصة.

■ خدمته للأمة علـى المسـتوى الخاص:

من المؤكد أن العز بن عبد السلام لم يكن عنده امتيازات شخصية، فلم يكن عنده رواتب ضخمة، ولا قصور فخمة؛ بل -كما سبق- كان الموكب الذي أراد أن يخرج به من مصر عبارة عن حمارين، وكان أثاثه كلّه يحمل في مزادتين، ورغم ذلك لم يتأخر العز عن خدمة الأمة على قلة ما يملك.

فقد حدث في دمشق انخفاض فـي الأسعار، حتى أصـبحت البسـاتين تبـاع بأسعار زهيدة، فجاءت زوجة العـزّ لـه وقد جمعت مصاغًا لها، وأعطتـه للعـز وقالت له: اشـتر لنـا بسـتانًا نصـطاف فيه -أي نخرج إليه في الصيف-، فأخـذ العزّ الحلي والمصاغ وبـاعه، ثـم وجـد الناس محتاجين، فتصدق به، ثـم رجـع إلى البيت، فقالت له زوجته: يا سيدي، هـل اشـتريت لنـا بسـتانًا؟ قـال: نعـم اشتريت لك بستانًا ولكـن فـي الجنـة، فقـد رأيـت النـاس محتـاجين ففرَّقْـتُ هذا المال فيهم. فقالت له: جزاك الله خيرًا[24].

إذن الأمة عرفت أن الرجل يبذل ماله، ويحرص على قضاء حقوق المحتاجين، ولو من مصاغ زوجته، وهذا يستحق أن تقف الأمة وراءه، هذا في الأمور الخاصة وإن كانت بسيطة؛ لأن العالم في العادة لا يكون عنده أموال يوزعها،، فالعالم في تاريخ الأمة كلها ما كان يوزع أموالاً إلا في حالات نادرة، إنما يوزع الهداية بين الناس، هداية الدلالة والإرشاد.

■ **خدمته للأمة على المستوى العام:**

كان العز بـن عبـد السـلام مـدافعًا أيضًـا عـن مصـالح النـاس الاقتصـادية والماليــة العامــة، فهــو يــدافع عــن أموالهم، ويمنع الظلم والاعتـداء علـى حقوقهم، وإليك مثالاً يوضح ذلك:

فعنـدما أراد حـاكم مصـر أن يقاتـل التتار، رأى أن أمـوال خزينـة الدولـة لا تكفــي، ورأى أن يأخــذ أمــوالاً مــن الناس، فجمع العلمـاء وقـال لهـم: مـا رأيكم؟ نريد أن نأخذ من الناس أموالاً نســتعين بهــا فــي تجهيــز الجيــش، والسلاح، ودفع رواتب الجند، وما أشبه ذلك من المصالح التي لابد منها، ونحن نواجه عدوًّا اجتاح بلاد العراق والشــام ووصل إلينا وما فـي الخزينـة لا يكفـي لإعـــداد الجيـــش فقـــال لـــه العز بن عبد السـلام: إذا أحضـرت مـا عندك وعند حريمـك، وأحضـر الأمـراء ما عندهم من الحلي الحرام، وضــربته سكة ونقداً وفرقته فـي الجيـش ولـم يقم بكفايتهم، في ذلك الـوقت اطلـب

القـرض، وأمـا قبـل ذلـك فلا، فأحضـر السلطان والعسكر كل ما عندهم مـن ذلك بين يدي الشيخ، وكان الشـيخ لـه عظمـــة عنـــدهم وهيبـــة بحيـــث لا يسـتطيعون مخـالفته فـامتثلوا أمـره وانتصروا[25].

هذا الموقف تناقلته الأمـة وعرفـت مَـنْ وراءه، وأن الـذي حفـظ أموالهـا وحماهـا مـن أن تغلـب أو يؤخـذ مالهـا بغير حق هو العز بن عبد السلام .

* * *

المبحث السابع

معايشته للواقع

إن من أهم الأمور التي جعلت الأمة ترتبط بالعز ابن عبد السلام معايشة الواقع.

فلم يكن العز بن عبد السلام - رحمه الله - معزولاً عن هموم الأمة، ومشاكلها، وأوضاعها؛ بل كان يعيش أولاً بأوّل مشاكل الأمة الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية...

وقد علمنا مما سبق من مواقفه كم كان يعيش مشكلات الأمة وهمومها، ولكننا بالإضافة إلى ذلك لو نظرنا إلى كتبه، لوجدنا أن لها علاقة كبيرة بالواقع.

فصحيح أنّ العز بن عبد السلام كانت له كتب في الفقه والحديث والأصول والتفسير وغيرها، ولكنه مع ذلك كانت له كتب أخرى لها ارتباط بالواقع مثل:

كتاب: "**الفتن والبلايا والمحن والرزايا**" الذي يتكلم فيه عن المصائب والصبر عليها وما أشبه ذلك، وهذا له علاقة كبيرة بالمصائب والمشاكل التي كانت تعيشها الأمة في عصره.

وله كتـاب اسـمه: "**ترغيب أهـل الإسلام في سكنى الشام**"، وقـد ألَّفَ هذا الكتاب لما اجتـاح الصـليبيون بلاد الشـــام، وبـــدؤوا يحـــاربون المسلمين، ففزع كثير من المسـلمين وبدؤوا يفـرّون إلـى الأمصـار الأخـرى، ويتركون الشام خلفهـم، فكيـف عالـج العزّ هذا الأمر؟

لقد ألَّفَ هذا الكتاب الذي يثبِّـتُ بـه المســلمين، ويحـــاول أن يجعلهـــم يقيمـون فـي بلاد الشـام ولا يخرجـون منها؛ بل يحثّ المسلمين في الأمصـار الأخرى أن يحرصوا على الانتقال إلــى بلاد الشام وسكناها ومدافعـة الأعـداء فيها.

وله كتاب اسمه: "**أحكام الجهاد**" تكلم فيه عن الجهاد وأحكامه وما يتعلق به وفضله، إضافة إلى أنه هو نفسه كان يقوم بالجهاد مباشرة، ويشارك فيه حتى إنه في إحدى المرات، لما غزا التتار بلاد مصر جبن أهل مصر عنهم وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض فاستشاروا الشيخ عز الدين فقال : اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر فامتثلوا أمره، وكان العز بن عبد السلام في جيشه يثبّت الناس، ويرفع معنوياتهم، ويقويهم، ويلهب حماسهم، حتى كانت الدائرة على الأعداء وانتصر المسلمون.

ومما صنّف العـز بـن عبـد السـلام وله تعلق بـالواقع أيضًـا، مـا كتبـه فـي **الفتاوى**[26]، حيـث نـاقش فـي هـذه الفتــاوى بعــض القضــايا المتعلقــة بعصره.

* * *

المبحث الثامن

تضامن العلماء معه

إن من أبرز الجوانب في حياة العز بن عبد السلام، والتي ساعدت على نجاحه: أن العلماء كانوا متضامنين معه، فلم يكن العلماء يقفون عند العز بن عبد السلام ليقولوا: هذا سرق منّا الأضواء، وهذا فعل وفعل، وما أبقى لنا شيئًا؛ بل كان العلماء يدًا واحدة خاصة العلماء العاملين، ومما يدل على ذلك:

■ **موقف عبد العظيم المنذري**[27] **معه:**

كان المفتي في مصر: هو الإمام عبد العظيم المنذري، فلما جاء العز ابن عبد السلام قال الإمام المنذري: قد كنت أفتي ولم يكن الإمام العز موجودًا، أما الآن فإن منصب الإفتاء متعين عليه[28].

■ موقـــف جمـــال الـــدين الحصيري[29] معه:

عندما غضب أحد أمراء الشام على العز بن عبد السلام، ومنعه من التدريس، وفرض عليه الإقامة الجبرية، ذهب أحد الفقهاء الأحناف وهو جمال الدين الحصيري -وكان فقيهًا مهيبًا- إلى الحاكم في قلعته، ووقف عند الباب على حماره، فقال الحاكم: دعوه يدخل، فلما دخل قام الحاكم إليه وأنزله بنفسه، وقدّمه وقدّره وأبى أن يأكل إلا بعده فقال الشيخ: ما جئت إلى طعامك ولا إلى شرابك، فقال له السلطان: يَرْسُم الشيخ ونحن نمتثل مرسومه[30]، قال: ما الذي حدث بينك وبين الإمام العز بن عبد السلام؟ قال: حدث كذا، وكذا، وذكر القضية، فقال هذا الفقيه:

والله لو كان العز بن عبد السلام في الهند أو في أقصى الدنيا لكان جديرًا بك أن تسعى في أن يحضر إليك؛ فإنه شرف لك أن تملك أُمَّة فيها مثل العز بن عبد السلام، فينبغي أن تسترضيه فوافق على ذلك، وأرضى العز بن عبد السلام وجعله في مقام رفيع[31].

المبحث التاسع

من يحمــل الـرايـة؟

إن الأمــة خاصــة فــي أزمنــة الفتــن والضعف كهـذا الضـعف الـذي نعيشـه الآن، وكالضعف الـذي كـان فـي زمـن العز بـن عبـد السـلام إذْ تسـلَّطَ عليهـا التتار من جهة، والصليبيون من جهة، والضــعف الــداخلي مــن جهــة ثالثــة، والتفرق والتمزق إلى غير ذلك.

إن الأمة في لحظات الضـعف هـذه تطـرح سـؤالاً هـو: مـن الـذي يحمـل الراية؟

الأمـة كلهـا فـي حيـرة تريـد أحـدًا يحمـل الرايـة، ويقـول: أنـا لهـا؛ حـتى تسـير الأمـة كلّهـا، ويسـير العلمـاء، وطلاب العلم، والدعاة وراءه.

■ **شـيوخ العـزّ يحملـون الرايـة من قبله:**

إن العـز بـن عبـد السـلام - رحمـه الله - تربـى علـى أيـدي علمـاء فيهـم قوة وجرأة فـي الحـق، فمنهـم تعلّـم، وعلى دربهم سار، ومن هؤلاء العلماء:

فخر الدين بن عساكر[32]**:**

كـان فخـر الـدين بـن عسـاكر فـي دمشق وحاولوا أن يلزموه بالقضاء[33] فرفض، وكـان ابـن عسـاكر قويًّـا فـي الحــق، حــتى إنــه أنكــر علــى حــاكم دمشق أنه كان يضـمِّن النـاس الخمـر والمكوس التي كانوا يتلفونها[34].

عبد الصمد الحرستاني:

ومن شيوخ العزّ أيضًا: رجل اسمه عبد الصمد الحرستاني[35] وهذا الرجل ألزم بالقضاء أيضًا، فلمّا ألزموه القضاء سار به على طريقة السلف الصالح وعلى الجادة، حتى إنه في إحدى المرات كان في مجلس القضاء، فجاءه خصمان قدم له أحدهم رقعة، فجعلها في الدرج ثم قال: ماذا عندك؟ وقال لخصمه: وأنت ماذا عندك؟

ثم حكم بعد ذلك فجاء حكمه ضدّ الرجل صاحب الرقعة، ثم فضّ الرسالة، وقرأه، فإذا به خطاب من الحاكم يشفع لهذا الرجل الذي حكم عليه، يقول له: حاول أن تنظر في أمره، وأن تجعل الحق معه، فأتلف ذلك الكتاب، وقال: قد غلب كتاب الله هذا الرجل[36].

فكـــان هـــذا مـــن شـــيوخ العز بن عبد السلام، وعلـى يـد هـؤلاء العلمـاء تعلّـم العـز بـن عبـد السـلام دروس القــوة، والشــجاعة، والغيــرة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكــر، والزهد في المناصب، حيث عزل العـز بن عبد السلام نفسَه من القضاء أربـع مرات، فكلما حدثت مشكلة بينه وبين السـلاطين يعـزل نفسـه عـن القضـاء ويقــول : مــالي بــه حاجــة! أنتــم ألزمتموني، لا أحتاجه، ثم يعزل نفسـه (37).

■ تلاميـذ العـزّ يحملـون الرايـة من بعده:

ثم تلقى على يد العز بن عبد السلام بعد ذلك رجال آخرون حملوا الراية من بعده، وساروا على دربه ومن هؤلاء:

ابن دقيق العيد[38]:

الذي عزل نفسَه من القضاء أربع مرات، فكلما حدثت مشكلة يقوم ابن دقيق العيد بعزل نفسه عن القضاء، ويقول: مالي به حاجة! أنتم ألزمتموني، لا أحتاجه، ثم يعزل نفسه[39].

وقد حصل لابن دقيق العيد موقف مشابه لموقف شيخه العز بن عبد السلام، فإن السلطان محمد بن قلاوون أراد أن يجمع المال من الناس لأجل حرب التتار ولو بالقرض، وهذا شبيه بما فعله قطز من قبل مع العز بن عبد السلام، فجمع السلطان محمد بن قلاوون العلماء؛ ليحظى بتأييدهم في هذا الأمر.

فقال له ابن دقيـق العيـد: لا يمكـن أن تأخذ الأموال من النـاس إلا بعـد أن تجمع الأموال من السلاطين، والأمراء، ومن نسـائهم، حـتى قـال لـه: إن مـن أمرائكـم مـن جهـز ابنتـه لـتزف إلـى زوجهـا، وعمـل بحفلهـا الجـواهر، واللآلئ، والحلي الفاخرة، وجعل معها الأواني من الذهب والفضة، وإن منكـم من رَصّع مداس زوجته بـالجوهر، فـإذا أتيت بهذه الأموال ولم تكف ننتقل إلى أموال الرعية.

إذن القضية هي تربية العزّ التي تلقَّاها مِنْ مشايخه من أمثال: ابن عساكر وعبد الصمد الحرستاني، ومن ثم أدّى الأمانة وسلّم الراية إلى من بعده كابن دقيق العيد وغيره من التلاميذ.

* * *

المبحث العاشر

فائدتان عظيمتان من حيــاة العــز

وأختـــــم الحـــــديث عـــــن العز بـن عبـد السـلام - رحمـه اللـه - بذكر فائدتين مهمتين من حياته.

وهاتان الفائدتان مـن المصـلحة أن يعرفهمـــا كـــل مـــن يـــدرس حيـــاة العـــز بـــن عبـــد الســـلام، ومـــا يتعلـــق بمواقفه البطولية الجهاديـة فـي الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفائدة الأولـى: طلبـه للعلـم في الكبر:

قد يظن بعض الناس أن هذا العـالم الجليـل قـد طلـب العلـم فـي صـغره، وهذا غير صحيح فقد كان جاهلاً أول أمـره، وكـبرت سـنُّه ومـا تعلـم، وهـذا عبرة لمن كبروا ولم يتعلموا.

في إحدى الليالي شديدة الـ برد كـ ان العز بن عبد السـلام نائمًـ ا بالليـل فـي الكلاسة -وهي زاوية في الجامع الأموي فـــي دمشـــق- وبهـــا ســـكن للطلاب وللناس حينذاك- فاحتلم في تلك الليلة فاستيقظ، وذهب بسرعة وكانت هنـاك بركـة فـي طـرف المسـجد شـديدة الـبرودة، حـتى لربمـا كـانت متجمـدة، فخلـع ثيـابه ونـزل فـي تلـك البركـة واغتسل في الماء البارد، ثم خرج حتى كاد يغمى عليه، وذهب ونام مرة ثانيـة، ثم احتلم مرة أخرى أيضًـا، فاستيقـظ وفعل مثل ذلك، وذكـر ابـن السـبكي هذه القصة فقال: ما أدري حصـلت لـه القضية مرتين أو ثلاثًا؟ وفـي كـل مـرة

كان يذهب إلى هـذا المكـان البـارد ثـم يرمي نفسه فيه، حتى قيل: إنـه أغمـي عليه فـي المـرة الثانيـة أو الثالثـة مـن شدة البرد، ثم رجع وجلس حـتى طلـع الفجر، وبعد ذلك أغفى إغفاءة بسـيطة وسمع أحدًا يقـول لـه فـي النـوم: هـل تريد العلم أو العمل؟ قال: أريد العلــم؛ لأن العلم يقود إلى العمل.

فلما أصبح الصباح أخذ كتـاب التنـبيه في فقه الشافعي، وجلـس عليـه حـتى حفظه، ثم بعد ذلك ظـلَّ يطلـب العلـم حتى أصبح -كما يقـول السـبكي- أعلـم أهل زمانه، وكان كثير التعبد للـه - جـل وعلا -[40].

الفائــدة الثانيــة: ثبــات عنــد الممات:

إذا كــانت الفائــدة الأولــى متعلقــة ببدايــة طلبــه للعلــم وبدايــة حيــاته العلميــة، فــإن الفائــدة الثانيــة تتعلــق بنهاية حياته.

ففـي نهايـة حيـاته، ولمـا حضـرته الوفـاة وقَـرُبَ مـوتُه، وكـان ذلـك فـي حكم السلطان بيبرس الذي كان يحب العزّ ابن عبد السلام، حتى إنه لما مات قال: لا إله إلا الله ما اتفق موت الشيخ إلا في زمني -أي: هـذا ليـس بخيـر أن يمــوت الشــيخ فــي زمنــي-، فجــاء السلطان بيبرس إلى العزِّ فـي مـرض موته وطلب منـه أن يعيّـن أحـد أولاده في منصبه، وكان للعز أكـثر مـن ولـد، من أشهرهم: عبد اللطيف طالب علـم ومترجم له[41]، فقال له العز: ما فيهـم من يصلح.

فالمسألة ليست مجاملات ولا أمور تتم بهذه الطريقة، أولادي ما فيهم من يصلح، إنما أعين فلانًا، وجاء برجل بعيد أجنبي وقال: إنه هو الذي يصلح وهو الجدير بمثل هذه المناصب.

وهكذا ضرب العز مثالاً للتجرد عن المصالح الشخصية ورغبات النفس، وأكّد على ضرورة ابتغاء وجه الله تعالى، ورعاية صالح الأمة في كل وقت وحين، حتى على فراش الموت، ولعلّ هذا من علامات الثبات عند الممات، فرحمة الله على هذا الإمام الجليل.

* * *

خـاتمــة

وأخيرًا، فإنني ما قَصَدْتُ مـن عــرض ســيرة العـز ابـن عبـد السـلام المتعـة فقــط، ولا الروايــة التاريخيــة، وإنمــا قصدت أمرًا آخـر وهـو أن الأمـة إذا نـدر الرجـال فـي واقعهـا دائمًـا تلتفـت إلـى الماضي؛ لتبحث عن هؤلاء الرجال.

وهـذه الأمـة مـا عقمـت ولـن تعقـم أرحـام النسـاء أن تخـرج لنـا رجـالاً مـن أمثال العز بن عبـد السـلام وغيـره؛ بـل مَنْ هم أفضل منه بإذن الله تعالى.

ولكن على الأمة أن تعـي دورهـا، وأن تبدأ بإعداد نفسـها لمثـل هـذه المواقـف الرجولية الصلبة التي هي أحوج ما تكـون إليها؛ فإن الأمة مقبلة على تاريـخ طويـل واللـه أعلـم بمـا يلقاهـا فيـه مـن الفتـن، والمحن، والشدائد، وهي أحوج ما تكــون إلى الرجـال الـذين يكونـون نجومـاً فـي الليالي المظلمة والفتن المدلهمة.

وصلّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس

الموضوع
الصفحة

مقدمة 3
.....
المبحـــث الأول: لمـــاذا سلطان العلماء؟ 7
المبحـــث الثـــاني: حيـــاته وعصره 9
المبحـث الثـالث: شـجاعته وجرأته في الحق 10
▪ الجرأة في الحق من هدي السلف**.....** 10

▪ فوائـــــــد الإنكـــــــار العلني...................... 112

المبحـث الرابـع: مـواقفه العظيمة................. 17

▪ موقفه مع الملـك الصـالح إسماعيل.......... 17

▪ مــــوقفه مـــع الصــــالح أيوب.................. 21

▪ مــــوقفه مــــع أمــــراء المماليك.................. 25

المبحث الخامس: محـاربته للمنكرات 32

▪ مـوقفه مـع الـوزير فخـر الدين 32

المبحث السـادس: مكـانته 38

عند الأمة .....

▪ خـــدمته للأمـــة علـــى المستوى الخاص..... 40

▪ خـــدمته للأمـــة علـــى المستوى العام..... 41

المبحث السـابع: معايشـته للواقع 43

المبحــث الثــامن: تضــامن العلماء معه 46

▪ موقـــف عبـــد العظيـــم المنذري معه..... 46

▪ موقـــف جمـــال الـــدين الحصيري معه..... 47

المبحث التاسع: من يحمل الراية؟ 48

▪ شيوخ العزّ يحملون الراية من قبله........ 48
▪ تلاميذ العزّ يحملون الرايـة من بعده....... 50
المبحث العاشـر: فائـدتان عظيمتـــان مـــن حيـــاة العز 53
▪ الفائـــدة الأولـــى: طلبـــه للعلم في الكبر...... 53
▪ الفائدة الثانية: ثبــات عنــد الممات........ 55
خاتمـة... 57

فهـرس..... 58
.....
الهوامش 61
.....

* * *

الهوامش

[1] انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (8/209)، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (2/110).

[2] انظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (2/110).

[3] ستأتي ترجمته.

[4] هي شجر الدر بنت عبد الله أم خليل التركية، كانت من حظايا الملك الصالح نجم الدين أيوب، وولدت له ابنه خليل، وقد ملكت الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها، وضُربت السكة باسمها وعلّمت على المناشير مدة ثلاثة أشهر. انظر: البداية والنهاية (17/352).

[5] انظر القصة في: عجائب الآثار (1/28)، وتاريخ الخلفاء (1/465)، ومآثر الإنافة (2/93)، والنجوم الزاهرة (6/364).

[6] جَبَذَ: لغةٌ في جَذَبَ. لسان العرب (2/165).

[7] أخرجه البخاري (956) وهذا لفظه، ومسلم (889) عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

[8] أخرجه أحمد (11150)، ومسلم (49)، والترمذي (2172) وهذا لفظه، والنسائي (5008) من حديث طارق بن شهاب.

[9] انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (8/234).

[10] قلعة الشَّقِيف: قلعة حصينة جدًّا في كهف من الجبل، قرب بانياس من أرض دمشق. انظر: معجم البلدان (3/356).

[11] صَفَد: مدينة في جبال عاملة المطلَّة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. انظر: معجم البلدان (3/412).

[12] قال ابن قاضي شهبة في طبقات الشافعية (2/110): ولي الخطابة بدمشق فأزال كثيرًا من بدع الخطباء، ولم يلبس سوادًا ولا سجع خطبته؛ بل كان يقولها مسترسلاً، واجتنب الثناء على الملوك بل كان يدعو لهم". اهـ.

[13] انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (8/243).

[14] طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (2/110)، وقد شارك العز بن عبد السلام علماء آخرين في الإنكار على الملك الصالح إسماعيل من هؤلاء أبو عمرو ابن الحاجب شيخ المالكية، حيث اشتدّ ابن الحاجب في الإنكار على الملك فاعتقله الملك مدة ثم أطلقه وألزمه بيته. انظر: البداية والنهاية (17/ 251، 300).

[15] انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (8/243).

[16] انظر: طبقات الشافعية الكبرى (8/211).

[17] انظر: طبقات الشافعية الكبرى (8/212).

[18] انظر: طبقات الشافعية الكبرى (8/211).

[19] انظر: طبقات الشافعية الكبرى (8/217)، وقال السبكي تعليقًا على هذه الواقعة: "وهذا ما لم يُسْمَع بمثله عن أحد، - رحمه الله - ورضي عنه".

[20] انظر: وحي القلم (3/41).

[21] انظر: طبقات الشافعية الكبرى (8/215).

[22] أخرجه مسلم (49) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

[23] قال السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (8/215): "ومما يدل على منزلته الرفيعة عندهم: أنّ الملك الظاهر بيبرس لم يبايع واحدًا من الخليفة المستنصر والخليفة الحاكم إلا بعد أن تقدّمه الشيخ عزّ الدين للمبايعة، ثم بعده السلطان، ثم القضاة.

ولمّا مرّت جنازة الشيخ عز الدين تحت القلعة، وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصِّه: اليوم استقرّ أمري في الملك؛ لأنّ هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه؛ لانتزع الملك منّي".

[24] انظر: طبقات الشافعية الكبرى (8/214).

[25] انظر: طبقات الشافعية الكبرى (8/215).

[26] انظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (2/111).

[27] هو الإمام الحافظ العلامة أبو محمد زكي الدين عبد.العظيم بن عبد القـوي المنذري قـال ابـن كـثير فـي البدايـة والنهايـة (17/378): "سـمع الكـثير، ورحـل وطلـب، وعنـي بالحـديث حـتى فـاق أقرانـه فيـه، وصـنّف وخـرج، واختصر صحيح مسلم وسنن أبي داود، وله اليد الطولى في اللغـة والفقـه والتاريخ، وكان ثقة حجة متحرِّيًا زاهدًا" .اهـ. توفي سـنة (656)هــ. انظـر: تذكرة الحفاظ (4/1436).

[28] انظر: طبقات الشافعية الكبرى (8/211).

[29] هو الإمام جمال الدين محمود بن أحمد بن عبد السيد بـن عثمـان بـن نصـر البخاري أبو المحامد المعروف بالحصيري نسبة إلـى محلّـة ببخـارى يعمـل فيها الحصير كان ساكنًا بها، ولد سنة (546)هـ، وتفقّه على جماعة ببُخَـارى وسمع الحديث، ثم قدم الشام، ودرس بالنُوريّة، وحـدّث وأفـتى وانتفـع بـه جماعة، وروى مؤلفـات محمـد بـن الحسـن وانفـرد بروايتهـا وانتهـت إليـه رئاسة أصحاب أبي حنيفة، وكان كثير الصدقة غزيـر الدمعـة، عـاملاً نزيهًـا عفيفًا. توفي - رحمه الله - سـنة (636)هــ. انظـر: الجـواهر المضـية فـى طبقات الحنفية ص 155.

[30] يقال: رَسَمْتُ له كذا فارتسمه: إذا طلبت الشـيء فـامتثله ونَفَّـذَه. انظـر: لسان العرب (5/216).

[31] انظر: طبقات الشافعية الكبرى (8/237).

[32] هو عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الملقب بفخر الدين شيخ الشافعية بدمشق قال ابن كثير: اشتغل الشيخ فخر الـدين مـن صـغره بـالعلم الشـريف علـى شـيخه قطـب الـدين مسـعود النيسـابوري، وكانت الفتاوى تفد إليه من الأقطـار، وكـان كـثير الـذكر، حسـن السـمت. توفي سنة (620)هـ وله خمسٌ وستون سنة. انظر: البدايـة والنهايـة لابـن كثير (17/120-122)، ووفيات الأعيان (38/135)، وسـير أعلام النبلاء (22/187).

[33] استدعاه الملك العادل أبو بكر بن أيوب وأجلسه إلى جواره وسأله أن يلـي القضاء بدمشق، فقال الشيخ فخـر الـدين: حـتى أسـتخير اللـه تعـالى، ثـم

امتنع من ذلك، فشق على السلطان امتناعه، وهَمَّ أن يؤذيه، فقيل له: احمد الله أن في بلادك مثل هذا. انظر: البداية والنهاية (17/121).

34 انظر: البداية والنهاية لابن كثير (17/122).

35 هو جمال الدين عبد الصمد بن محمد بن الحرستاني قاضي القضاة بدمشق، ولد سنة (520)هـ، قال العز ابن عبد السلام: ما رأيت أحدًا أفقه من ابن الحرستاني. اهـ قال ابن كثير في البداية والنهاية (17/668): "ذكر غير واحد أنه كان من أعدل القضاة وأقومهم بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم". اهـ. توفي سنة (614)هـ وعمره خمسٌ وتسعون سنة. انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (8/196)، وسير أعلام النبلاء (18/80).

36 انظر: سير أعلام النبلاء (22/83).

37 قال الذهبي في تذكرة الحفاظ (4/1481): "عزل نفسه من القضاء غير مرة". ا هـ.

38 تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري المنفلوطي الصعيدي صاحب التصانيف ولد في شعبان سنة (625)هـ، قال الذهبي في تذكرة الحفاظ (4/1481): "الفقيه المجتهد المحدِّث الحافظ العلامة شيخ الإسلام، وكان من أذكياء زمانه واسع العلم كثير الكتب مديمًا للسهر، مكبًّا على الاشتغال ساكنًا وقورًا ورعًا، قلَّ أن ترى العيون مثله". اهـ.، توفي - رحمه الله - في صفر سنة (702)هـ.

39 قال الذهبي في تذكرة الحفاظ (4/1481): "عزل نفسه من القضاء غير مرة". اهـ.

40 انظر: طبقات الشافعية للكبرى (8/213).

41 هو عبد اللطيف بن عبد العزيز بن عبد السلام الفقيه، ولد سنة (628)هـ، فطلب الحديث بنفسه وقصد الشيوخ، وتفقّه على والده، وتميَّز في الفقه والأصول، وكان يعرف تصانيف والده معرفة حسنة. توفي - رحمه الله - بالقاهرة في شهر ربيع الآخر سنة (695)هـ. انظرترجمته في: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (8/312)، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (2/182، 183).

* * *